مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة جامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.
المجلد :06/ العـدد:02 / ديسمبر (2022)، ص.203/192

الرواية الجزائرية واستنطاق الذاكرة التاريخية السياسية-التصحيح الثوري أنموذجا

The Algerian novel and interrogation of the historical, political memory: The revolutionary correction as an example

نورالدين بن نعيجة
n.benaidja@gmail.com
مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط (الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2022/01/05 تاريخ القبول: 2022/04/17 تاريخ النشر : 2022/12/02

ملخص:
يهدف هذا المقال إلى تبيان دور الرواية الجزائرية في سرد التاريخ السياسي لما بعد الثورة التحريرية وإدخاله حجرة المسائلة والاستنطاق قصد تشريحه ونقد عيوبه، لتكون بذلك الرواية هي السلطة وهي المرجع الذي تدوّن فيه الأزمات وتطرح فيها التساؤلات، وتعقد فيه المحاكمات.
ولأن انقلاب العقيد "هوراي بومدين" على الرئيس الأسبق "أحمد بن بلة" يعتبر حدثاً مهماً أسس لمعالم الدولة الجزائرية الحديثة بعد الاستقلال، فقد كان محط اهتمام المثقفين والمفكرين وحتى الأدباء، ومن هذا المنطلق سنحاول في هذا المقال مقاربة بعض النصوص الروائية الموجودة في كل من رواية "أصابع لوليتا" لـ "واسني الأعرج"، و"العشق والموت في الزمن الحراشي" لـ "الطاهر وطار" وكيفية تناولهم لمسألة الانقلاب أو التصحيح الثوري.
كلمات مفتاحية: الرواية الجزائرية ; التاريخ السياسي ; هواري بومدين ; بن بلة ; التصحيح الثوري .

Abstract:
This article aims to highlight the role of the Algerian novel in the narration of the political history of the post- revolution of liberation. It also designed to question and interrogate this history, in order to scrutinize it and critique its defects.Hence, the novel is the authority and the reference in which novelists write crises, raise questions, and hold trials.
And because of the coup of Colonel Houari Boumedine against the former president, Ahmed Ben Bella is an important event.It established the foundations of the modern Algerian state post_independence. This event further was a focus of interest for academics, intellectuals, and even authors.
Thus, and from this point of view, we will try to approach through this article some of the novelistic texts that found both in "Lolita's Fingers" by Ouassini Laaraj and in "Love and Death in the Time of Harachi" by Tahar Ouettar, and how they dealt with the coup or the revolutionary correction.
Keywords: *Algerian novel, Political history, Houari Boumedine, Ben Bella, Revolutionary correction.*

مقدمة:
تعتبر الرواية الجزائرية الحديثة العين الشاهدة على تاريخ الثورة، والشمعة الموقدة التي تحاول إضاءة دهاليزه المظلمة، باحثة عن إجابات لأسئلة أريد لها أن تقبر في غياباته، وتعلق عليها لافتة مسكوت عنه. متجاوزة بذلك نظرتها

التبجيلية للثورة التحريرية، وما كتب عنها في السبعينات، اعترافاً لهذه الثورة وما شكّلت من مُنعرج حاسم للتغيير والتحول الذي كانت تنشده النخب الوطنية المثقفة بصفة عامة والروائيون بصفة خاصة، والذي اصطدم فيما بعد بواقع الاستقلال الذي لم يحقق تطلعات وآمال الشعب الباحث عن الحرية والعدالة الاجتماعية، ومن هنا كان لزاماً على الروائيين مساءلة الذات عبر مسائلة تاريخ الثورة باعتباره منطلقاً لتأسيس الدولة الجزائرية الحديثة.

ولأن الرواية هي التاريخ الذي لم يكتبه المؤرخون –على قول بعض النقاد- فإنها تعد اليوم الفضاء الأنسب لقول الحقيقة لشعوبها، متجاوزة تلك النظرة الرومانسية للتاريخ الوطني وتغليفه بالحرير القاتم الناعم، الذي يغطي ثغراته ويقدمه في أبهى حلّة، وأصبحت تنظر إليه نظرة نقدية قريبة من الإدانة، عبر مساءلة الذات، والتاريخ ووضعه في حجرة الاستنطاق للكشف عن الخبايا التي طالما سُكِتَ عنها. باحثةً عن تاريخ سوي يكون منطلقاً لفهم الحاضر وترميم ثلماته.

من هنا أصبحت الذاكرة بإرثها التاريخي، وبجروحها المزمنة، تيمة رئيسية في المتن الروائي الجزائري، فهو ميزة لصيقة بجل الانتاجات الروائية الجزائرية، لأن الروائيين الجزائريين كثيراً ما يلجئون للماضي بغية استحضاره، ولكن الفرق الأساسي بينهم هو كيفية النظر لهذا الماضي الدفين، وكيفية التطرق إلى قضاياه الشائكة التي لا تنفصل على الواقع المأزوم اليوم. ومن هنا تكون الرواية الجزائرية لا تستحضر الذاكرة ولا تستنطقها إلا بقدر ما تبحث عن إجابات للحاضر بغية فهمه والانطلاق نحو مستقبل لا مكان فيه للعقد أو الإقصاء أو تهميش الآخر، منطلقةً من تاريخ صريح يعالج الأزمات، ومتجاوزة التاريخ الرسمي الذي يكتبه المؤرخون. مستعملةً تقناتها التخييلية لتمزج الحقيقة مع الخيال، وتكوّن وعي جديد لدى القارئ المخيال. لكن كيف يتم المزج بين الواقع وسلطة المرجع، وبين الرواية ورحاب التخييل؟ وماهي الحدود الفاصلة بين المرجعية التاريخية والتخييل؟ وكيف نظرت الرواية الجزائرية المعاصرة لتاريخ الثورة المغيّب بصفة عامة، والحكم باسم الشرعية الثورية والصراع حول السلطة بصفة خاصة؟ . هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذه المقاربة من خلال دراسة روايتين جزائريتين هما: "العشق والموت في الزمن الحراشي" " للطاهر وطار"، ورواية "أصابع لوليتا" للروائي "واسيني الأعرج"، والتي تطارقا فيها إلى الرئيس الراحل "هواري بومدين" باعتباره الرئيس الذي تميزت فترة حكمه بتحول جذري في السياسة الجزائرية خاصة بعد الانقلاب أو التصحيح الثوري على الرئيس الراحل "أحمد بن بلة".

1- الرواية الجزائرية والذاكرة الوطنية

إن متتبع الرواية الجزائرية المعاصرة يرى أنها كانت سجلاً فنياً تاريخياً، واكبت فيه مختلف تطوّرات وتأثيرات أحداث البلاد، خاصة مرحلة الثورة الجزائرية التي كانت التيمة الكبرى في الرواية الجزائرية، فجمعت "في البداية التاريخيّ بالتخييلي في كتابتها للثّورة، إذ أعادت كتابة التاريخ روائياً، فلا تكاد تنفلت من التاريخيّ إلاّ لتقع في الروائيّ، ولا تكاد تنفلت من الروائيّ إلاّ لتقع في التاريخيّ"[1]. باعتبار أن التاريخ كان مرجعيتها الرئيسية في متونها الروائية التي لم تستطع التخلص منه بسبب الاشكالات الاجتماعية والثقافية والسياسية المرتبطة بذلك التاريخ، الذي شكّل بصفة عامة والثورة بصفة خاصة أهمّ مرجعيات الرواية الجزائرية المعاصرة، باحثة عن ربط الماضي بالحاضر قصد معالجة الراهن المتعفن، "ومن هذا المنطلق، يعدّ دخول التاريخ إلى النّص الروائيّ الجزائريّ مغامرة من الكاتب الّذي يريد إيصال أفكاره إلى القارئ بشتى الوسائل"[2]. باعتبار أن هذا الكاتب هو حامل لإيديولوجيا معينة أو رؤيا للعالم مرتبطة بمجموعة معينة يحاول أن يسوّق أفكارها الإيديولوجية في مجتمعه، وهكذا ظل التاريخ الثوري مرجعية إيديولوجية للعديد من الروائيّين ولمدة طويلة والّذي طالما شكلّ بؤرة للسرّد.

إنّ مسألة التاريخ -خاصة التاريخ المغيب عن الشعوب- كان ومزال مادة خام دسمة لكتابة الرواية الجزائرية وينبوعها الّذي لا ينضب، لأن الخطّاب الروائيّ خاصة السياسي منه لا يمكن أن ينفصل عن التاريخ باعتبار أن هذا الأخير هو من بني عليه حاضرنا المأزوم، لذا فإن استحضاره وتوظيفه داخل المتن الروائيّ يشكلّ فاعلية نصيّة، تسعى إلى تعرية كل ما له علاقة بالوضع الراهن. وما الرواية إلا نص "يتفاعل مع مختلف النّصوص كيفما كانت طبيعتها"[3]. المهم أن تؤدي وظيفتها الابلاغية والتأثيرية في المتلقي، ومن هنا نجد الرواية الجزائرية لم تنفصل عن التاريخ، فهناك تاريخ مرتبط بفترة ما قبل الثورة مثل رواية "البيت الأندلسي" لواسني الأعرج الّذي استرجع فيه محطّات من تاريخ المسلمين بالأندلس على نحو غير منقطع عن جوهر الواقع العربيّ وما يحمله من انكسارات متتاليّة. و"كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد" لنفس الروائي، والّذي تحدث فيه عن التاريخ الصامت للأمير عبد القادر الجزائريّ ومقارعة أولى موجات الاستعمار

الفرنسي. ثم يأتي التاريخ الّذي تستعيد منه الذاكرة الثورة التحريرية لتعرض أحداثها المشحونة بالتضال والجهاد، وتاريخ يحاول تشريح أزمات البلاد والوقوف على أسبابها، من خلال فتح النقاش حول ما جرى من خلافات سياسيّة، وصراعات سلطوية. إذ نجد الكثير من الروائيّين يستلهمون نصوصهم من تاريخ الجزائر، مثل رواية "اللاز" للطاهر وطار والّتي "جاءت تصويراً للثورة الجزائرية من الداخل، ينمّ على معايشة الروائيّ اليومية ووعيّه السّياسيّ والاجتماعيّ لأحداث الثورة الجزائرية وأزماتها ومشكلاتها وخلافاتها التنظيمية"[4]. فهي تعتبر "كانجاز فني جريء وضخم، يطرح بكلّ واقعيّة، وموضوعيّة، قضية الثورة الوطنية لا من وجهة التحالفات المنطقية لقوى الثورة الّتي فرضتها تلك المرحلة، ولكن كذلك من وجهة التناقضات الداخلية الّتي كانت تحدث داخل الحزب الواحد"[5]، بالإضافة إلى **رواية، "العشق والموت في الزمن الحراشي" للطاهر وطار، "نار ونور"، "دماء ودموع"، "الخنازير" لعبد الملك مرتاض، "قبل الزلزال" لعلاوة بوجادي، "ريح الجنوب"، "نهاية الأمس"، "بان الصبح" لعبد الحميد بن هدوقة، "طيور في الظهيرة" لمرزاق بقطاش وغيرها من الرّوايات الّتي عكست الواقع المعاش لهذه الفترة التاريخيّة.** فكانت تيمة الوطن هي البؤرة المركزية في أغلب النّصوص الروائية الجزائريّة، كلّ حسب ايديولوجيته ورؤيته للعالم وللكون وبذلك نجد أنّ "الكثير من الروائيّين الجزائريّين قد ربطوا في نصوصهم، بين ما حدث أثناء الثورة، وما كان يحدث بعد نيل الاستقلال. كلّ من وجهة نظرته الايديولوجيّة، ووفق علاقته بالثورة وموقفه منها ومن رجالاتها، غير أنّ الثابت هو أنّ الثورة ظلت هي المرجعية الايديولوجية والفنية الّتي ينطلق منها أغلب الروائيّين الجزائريّين"[6]. في نسج متونهم الروائية، وفي ترقيع الثغرات التاريخية التي بقيت مفتوحة دون غلق.

2- الطاهر وطار: العشق والموت ومسائلة الهواري

تعتبر رواية العشق والموت في الزمن الحراشي من الروايات التي تعالج فترة ما بعد الاستقلال في تناقضاتها وفي صراعاتها الاجتماعية والايديولوجية والاقتصادية باعتبار المجتمع خرج من فترة استعمارية قوامها أكثر من 130 سنة من الذل والمهانة. وبعد صراع مرير مع الاستعمار الفرنسي من خلال ثورة شابها الصراعات داخل بيت الثوار. لذا كان من الضروري بمكان أن تكون الرواية الوطارية هي المعبرة عن تلك الفترة التي عاصرها الروائي بكل جوارحه وآماله الطامحة للتغيير وبناء دولة قوامها الحرية والعدالة الاجتماعية.

والملاحظ في هذه الرواية ذلك الربط الشديد بين الماضي القريب المتمثل في الثورة والحاضر الذي يمثل بداية بناء الدولة الجزائرية من خلال تواجد نفس شخصيات الرواية السابقة "اللاز" في صراعها مع المستعمر ومعاصرتها لزمن الاستقلال. كما نلاحظ ذلك التداخل الرهيب بين شخصية الكاتب وشخصية "برهما"، هذه الشخصية الغائبة الحاضرة في ذهن جميلة بطلة الرواية والمتأثرة بها جعلت من هذه الرواية تبرز ذلك المنظور الإيديولوجي للكاتب وتجعل منها منبراً لإيصال رسائله للقراء ولكافة أطياف المجتمع. ربما لأن سياسة الغمز والتخفي في الكتابة الروائية لم تساعد الكاتب على البوح والوصول إلى كافة أطياف المجتمع خاصة عندما يكون الكاتب حاملاً رؤية كونية يحاول إيصالها لمجتمعه. فما له من بد إلا نزع الأقنعة والصراخ بأعلى صوته، عله يجد آذان صاغية. أو ربما لأن الزمن الحاضر صار يسمح له بالتجلي من خلال تبني الدولة للرؤية الاشتراكية مع الراحل "هواري بومدين" الذي نجده حاضراً في الرواية كبطل يقود الحراك نحو حياة أفضل للفقراء والمساكين من خلال تبني مشروع الاشتراكية المرتبط أساساً بالفكر الماركسي.

فنجد أغلب شخوص الرواية المدافعين عن الاشتراكية يمجدون أفعال "الهواري" ويكنون له الحب والود والاحترام فمثلا عيسى بوعين كاتب القسمة نجده يعبر في خاطره عن ذلك الحب والاحترام.

"إنهم مجاهدون. حقاً. ثوار. يستحقون الدعم والإعانة. وحتى لو أنهم ليسوا كذلك. فمجرد قدومهم إلينا، هاتفين بحياة الهواري، يضعهم في مصاف المجاهدين. من يحب الهواري في قريتنا؟ أبدأ بنفسي قبل غيري. أنا شخصياً أحبه، أمي أيضاً تحبه. لكن أبي وكل تجار القرية يكرهونه"[7]

فـ"الهواري" كان في تلك المرحلة يمثل الفقراء والمساكين وكان من الداعمين لهم من خلال تبني مشروع الاشتراكية والثورة الزراعية بالرغم من تقلده للسلطة بانقلاب عسكري أو ما يسمى بالتصحيح الثوري والذي أظهر ذلك الخلاف بين الأخوة الثوار إلى العلن. غير ما نلحظه في هذه الرواية هو أن "الطاهر وطار" لم يشر بالتفصيل إلى تلك الخلافات التي وقعت على هرم السلطة وإنما كان انحيازه فيما بعد واضحاً إلى جهة دون أخرى بسبب التوافق الإيديولوجي بين

الكاتب وبين السلطة الجديدة، ونضن في هذا الصدد أن الغاية تبرر الوسيلة، فالطاهر وطار لم يخف نظرته الاشتراكية والماركسية الداعية إلى الثورة ضد أشكال الظلم والقهر والمنتصرة بالأساس للفقراء والمساكين ضد الامبريالية والإقطاعية، وهذه النظرة تتوافق بالأساس مع مشروع الاشتراكية والثورة الزراعية الذي تبناها الراحل "هواري بومدين". وإذا ما أردنا استجلاء علاقة هذا الأخير بالكاتب فنجده يوضح تلك العلاقة بوضوح من خلال حوار "جميلة" من "برهما"

"أكيد أنه في خضم الصراع المحتدم، يتحمل الهواري مسؤولية كبرى، لتخفيف حدة الألم عنكم.

برهما، يقول أعرفه منذ الخمسينات، وأعرف بالتقريب، كل تركيبات فكره، لقد استمعت إليه يتحدث، بعد عودته من مؤتمر طرابلس، وتركته مرة ينتظر، خلال نوبة حراسة كنت أقوم بها، قرابة العشرين دقيقة، تحت الشمس المحرقة في انتظار أن يحضر رئيس فرقة الحراسة، وعشت حتى الأعماق، فترة إعلان تمرده عن الحكومة المؤقتة بكل شجاعة. وأجريت معه حديثاً. صحفياً يوم لم تكن الأمور بيده. لعله أول تصريح سمح لنفسه بإعطائه بعد الاستقلال. وتشربت كل كلمة قالها في خطبه، ولدي تفسير لكل حركة قام بها. وقد تحديته أكثر من مرة."[8]

فالكاتب لم يكن مؤيداً للانقلاب على الحكومة المؤقتة بل جابهها بكل شجاعة كما يقول باعتباره مثقفاً يؤمن بالقيم الديمقراطية. ولأن علاقة المثقفين والكتاب الأحرار بالسلطة هي دائماً علاقة تنافر وعلاقة حذر بالرغم مما يكون من توافق في الرؤى بينهما. لذا كان على الكاتب القيام بالتحدي لأنه يرفع لواء الدفاع عن شعبه والمتكلم باسمهم وباسم طموحاتهم.

"كان علي أن أتحداه، بحكم ممارسة الكتابة، وبحكم تواجدي السياسي، معه، وأيضاً بحكم يساريتي التي لا يمكن أن أتطهر منها كفنان، محكوم عليه بالتوق إلى الأمثل فالأمثل"[9]

فبالرغم من التوافق الإيديولوجي بين السلطة الجديدة وبين الكاتب إلا أن هذا الأخير يأبى الانغماس معها في كل الأمور لأن الكاتب فنان يتوق دائماً إلى الأمثل فالأمثل والانقلاب ليس سوى صورة تعكس غياب ثقافة الحوار والديمقراطية والخروج عن المسار الطبيعي للحكم، وقد كان لذلك الاعتراض الأثر البالغ على الطاهر وطار إذ أعتبر بداية خروجه من حزب جبهة التحرير كما يوضح في إحدى اللقاءات الصحفية:

"قضية فصلي من جبهة التحرير الوطني بدأت جذورها يوم الانقلاب على الرئيس أحمد بن بلة في 19 جوان 1965، ومن ساعتها كنت أعرف بأنني مستهدف، وكنت مصراً على النضال ضد الانقلابيين وكتاباتي شاهد على ذلك، وأيضاً مصراً على البقاء في الحزب، وهذ الأمر موجود في رواية "اللاز" حيث زيدان رفض الاستقالة، وترك الثورة أيضاً."[10]

وهنا يبرز دوره كمثقف وكاتب يساري لا يهادن السلطة ولا يرضى بأنصاف الحلول التي قد يلجأ إليها السياسيون وصناع القرار، لذا فهو يلجأ دائماً إلى تحدي السلطة لأنه الصوت المعبر عن هموم الشعوب وعن طموحاتها وآمالها، والمدافع عن مبادئ الاشتراكية التي يرى أنها لم تطبق في الجزائر.

"نحن لم نذهب إطلاقاً نحو الاشتراكية ولم تكن لدينا قيادة تؤمن بالاشتراكية، بقينا في إطار ما يسمى برأسمالية الدولة.. ما يسمى بالثورة الزراعية هو في الحقيقة إصلاح زراعي، فقد طبّق هذا الإصلاح في إيران والمغرب، وفي بلدان لا تعرف أصلاً ما معنى الاشتراكية.. طبّق لأنه كان ضرورة اقتصادية لا غير. الجزائر عرفت رأسمالية الدولة على يد أناس معادين للاشتراكية، وهذا الكلام قد قلته للرئيس هواري بومدين في 1974 في اجتماع لإطارات الأمة، قلت: أنت تريد تطبيق الاصلاح، والثورة الزراعية كما لو أنك تصعد على سلّم كل درجاته مسوّسة.. قلتها بهذه العبارة فاضطر لقطع الاجتماع ورفع الجلسة."[11]

لكن رغم ذلك فهو لا يستطيع أن ينكر دور السلطة الجديدة في تغيير أوضاع الشعب نحو الأفضل.

"إنني أعرف كما أعرف نفسي.

وإذا ما طبقنا عليه، قوانين المفهوم المادي للتاريخ، فسنجد أنه، أكثر من يعمل على تحطيم الزمن الحراشي، فبتوسيعه للصناعة، يفتح المجالات الحقيقية للانقلاب الأساسي، في كل البناء الفوقي الهائل. ويحدث التفاعل الاجتماعي الكبير، ويضفي طابع الثورية، على كل ما يجري في بلادنا منذ الخمسينات.

تعرفين جيداً المقولة الماركسية "..ليس إدراك الناس، هو الذي يعين معيشتهم، بل على العكس، من ذلك، معيشتهم الاجتماعية، هي التي تعين إدراكهم، ومع تغير الأساس الاقتصادي، ينفتح عهد الثورة الاجتماعية، ويحدث الانقلاب..."[12]

فهو يرى أن السلطة الحالية عمدت إلى توسعة الصناعة وتأميم الأراضي الزراعية لصالح الفقراء، مما يساهم في إحداث التفاعل الاجتماعي وبداية تشكيل الوعي الطبقي لدى البروليتاريا مما يسمح بالثورة الاجتماعية المنشودة التي تحطم كل القيود المفروضة على الشعب، ويوضح ذلك جيداً من خلال الاستعانة بالمقولات الماركسية التي ترى أن المعيشة الاجتماعية هي التي تحدد وعي الشعوب وليس العكس. لذا فالسلطة بقيادة "هواري بومدين" تعكس ذلك التغيير في نمط معيشة الفقراء والطبقة الكادحة وهي التي ستأدي بالأساس إلى تغيير وعي تلك الطبقة حتى تحدث الانقلاب على أوضاعهم السائدة، لذا فالعلاقة بين "الطاهر وطار" وبين الرئيس الراحل هي علاقة ثقة واحترام بالرغم من التحدي الذي أشرنا إليه سابقاً، فهو يمثل المرتكز الذي يقودهم إلى الانقلاب الحقيقي على الأوضاع السائدة باعتباره قائداً للثورة الاجتماعية.

"برهما يقول. إنه يثق به ويحترمه، ويشعر بثقل مسؤليته، والجماهير الكادحة، تحبه من أعماقها. وبفضله، أنت متواجدة هنا، تشكلين مع رفاقك، خطاً موازياً للزمن الحراشي، وللموت.

كان ممكناً جداً، أن تكوني، أنت، وهم، وبرهما، في السجون والمنافي، وليس التهم هي التي تنقص. إنكم لا تستطيعون إنكار الحقيقة التي يعلمها الجميع. وهي أنكم تزرعون منذ سبع سنوات بذور تنظيم ماركسي لينيني سري.(...) لقد دفعنا ومازلنا، ندفع الثمن، وعلى استعداد تام لدفعه مهما كان باهضا."[13]

فحب الجماهير الكادحة للرئيس الراحل "هواري بومدين" ومرافقته للمتطوعين الاشتراكيين ودعمه لهم جعل من الكاتب يكن له الاحترام والتقدير رغم معاضته لطريقة توليه السلطة. فهو يمثل طوق النجاة بالنسبة للماركسية والاشتراكية التي لم يخف الطاهر وطار انتسابها لها وبسعيه الدؤوب إلى زرع بذور التنظيم الماركسي في الجزائر من خلال كتاباته التي ما تنفك تزرع الوعي الطبقي بين أفراد المجتمع، طامحاً إلى إحداث ثورة أو انقلاب على الأوضاع الاجتماعية وعلى سيطرة الإقطاعيين والبرجوازية على مقدرات الطبقة الكادحة التي تقبع في التخلف والفقر. وهذا ما أوضحته رواية اللاز . وما هذه الرواية إلا تكملة لما قبلها وتوضيحاً بارزاً لتلك الرؤية الايديولوجية بإبرازها وشرحها والتعليق عليها بكل وضوح.

3- واسيني الأعرج: أصابع لوليتا التي تتهم العقيد

قد تكون كتابات "الطاهر وطار" حول العقيد هواري بومدين وعن التصحيح الثوري متفهمة، وذلك بسبب اشتغاله على تيمة الثورة في تلك الفترة التي كانت هي التيمة الكبرى عند جلّ الروائيين، وكذلك اشتغاله على النقد الاجتماعي وربما جنوح الدولة إلى الاشتراكية خصوصا مع العقيد – كما رأينا سابقا- لكن ما قد يثير التساؤلات لماذا يكتب "واسيني الأعرج" عن الانقلاب أو التصحيح الثوري بعن نصف قرن من زمن وقوع الحادثة؟ وكيف كانت رؤيته للعقيد "هواري بومدين" في هذه الرواية الرومنسية البوليسية؟

تدور أحداث رواية "أصابع لوليتا" في أحد الأحياء الباريسية، حيث يعيش الروائي الجزائري الأصل "يونس مارينا" (سلطان حميد السويرتي)، الذي يقترب من عامه الستين، والذي فرّ من جحيم الاضطهاد والديكتاتورية التي حكمت عليه بالقتل في جزائر ما بعد الاستقلال، وذلك اثر كتاباته السرية حول انقلاب العقيد "هواري بومدين" على الرئيس الشرعي "الرايس بابانا" (أحمد بن بلة)، ابن مدينته مارينا وصديق والده في الكفاح الثوري ضدّ المستعمر. الأمر الذي جعل مارينا ينخرط في المعارضة السياسية، ضد سياسات العقيد وذئابه للدفاع عن الرئيس الشرعي للبلاد "الرئيس بابانا" المودع في السجن، هذه الشخصية التي طالما احترمها الجزائريون والتي اعتبرها الروائي بمثابة الرمز والأب لكلّ جزائري.

اتّخذ سلطان أحمد سويتري اسم "يونس مارينا"، كاسم مستعار لكتاباته في جريدة المعارضة التي بدأت تنتشر وتلقى صدى واسع لدى جمهور الشعب، لكن بطش العقيد وتنكيله بعناصر المعارضة والمقربين منها، وعلى رأسهم "موسى لحمر"، ووالدة الكاتب "يمّا جوهرة"، جعل يونس مارينا يفرّ من بطش ذئاب العقيد، ليختبئ في "ماخور" ستة أشهر

تعرّف فيه على أول امرأة في حياته "المومس مريم ماجدلينا" ثمّ اشتغل عاملاً بالسفن ليهاجر في الأخير صوب فرنسا، كلاجئ سياسي.

و في الرواية قيد الدراسة، نجد "مارينا" المثقّف يحاول أن يلامس التاريخ الهش، أو المسكوت عنه الذي يرى بأن امتداداته مازالت آثارها تطغى على الواقع السياسي والاجتماعي الجزائري، محاولاً طرح الأسئلة القلقة التي سُكت عنها، وإثارة التساؤلات نحو الإجابات المؤدلجة، ويبدأ هذا التلامس الهش من خلال التقائه بالرئيس السابق "الرئيس بابانا" -دلالة على الرئيس بن بلّة- في محاولة لاستنطاقه، بحثاً عن اجابات للأسئلة التي ظلّت معلّقة في هذا التاريخ الوطني المليء بالأسرار والخوف.

"يا سيّدي الرئيس أنا لا أحسّ بأنّي ألتقي رجلاً كان من حيث لا يدري سبباً في كلّ ما حصل لي، بل ألتقي تاريخاً عليّ أن لا أمسّه بقوّة لأنّه هشّ مثل جناحي فراشة، مخافةَ أن يتبعثر. في هذا العمر، يكفيني أنّك هنا. أسئلتي الأخرى ستظلّ معلّقة. سأكون سعيداً لو تقاسمتُها معك يوماً سيّدي الرئيس"[14].

فتاريخ الجزائر هو تاريخ هش، يحاول الروائيّ ملامسته ومسائلته بلطف خوفاً من أن يتبعثر، فهو مليء بالصراعات والاختلافات السّياسية والتناقضات الايديولوجية بين الإخوة الثوار. فما يقدم من تاريخ للأجيال ما هو إلاّ تاريخ قد زيّن وجمّل وزوّق ليخرج في أبهى حلّة. لذلك يكون **"بعض ما تعلّمناه يحتاج إلى كنس حقيقي بلا تردّد"**[15].

ولأنّ التاريخ يكتبه المنتصرون، فهو تاريخ مزوّر -على حسب بعض النقّاد-، والكاتب هنا يحاول البحث عن التاريخ المضاد الذي تسوّقه السلطة من خلال إعادة تشكيل وعي جديد بالتاريخ الحقيقي الذي يحتاج إلى الشجاعة الكافية لدخوله دهاليزه، وكنس ما قد علق به من غبار وأتربة تحجب الرؤية الحقيقية للواقع وللتاريخ. والبطل هنا واعي بهذه القضية، وواعي بأهمّية التاريخ وتأثيره على المجتمع، لذا فهو يصرّ ويلحّ على الرئيس بابانا على كتابة مذكراته من أجل قول الحقيقة وتدوينها للأجيال القادمة، قصد تشكيل وعيّ حقيقي بهذا التاريخ، وأخذ العبر منه لبناء المستقبل، "فالتاريخ العربي والإسلاميّ لا يزال يقرأ بدون وعيّ، لا يزال يقرأ قراءة تبجيلية سطحية تتسبب في إفساد الصحة العقلية الّتي يتمتع بها الأفراد، لا يزال التاريخ يدرس في المدارس والجامعات، ويستحضر في الوعيّ بصورته الرومانسية وبدون حس نقدي وبدون محاولة فهم لتاريخيّته"[16]. غير أن هذه النظرة الرومنسية والصورة التبجيلية للتاريخ الرسميّ الذي يلقّن في المدارس، لم تعد تقنع الأجيال الجديدة الواعية المتسائلة والباحثة دوماً عن الحقيقة، لأنّ التاريخ المكتوب والمتداول ليس سجلاّ نزيهاً للأحداث وانّما هو تاريخ المنتصر، ومن يكتبه هو الذي انتصر على غيره، وبالتالي سيكتب تاريخاً على مقاسه، ورؤيته هو، لذلك فمارينا يطلب من الرئيس بابانا كتابة مذكراته

"أتمنّى أن تكتب يوماً مذكّراتك قبل أن يكتبها الآخرون عنك وكما يشاؤون"[17].

فللمنتصر أدوات تمكنه من فرض نظريته ورؤيته للوقائع التي تدون، لتورّث بعد ذلك للأجيال اللاحقة. وليس أهون علينا للإستدلال على هشاشة التاريخ وكتابته من قبل المنتصر، أن جُعل الانقلاب على الرئيس بن بلّة، وعلى الشرعية، هو يوم عيد، وإجازة رسمية من قبل نظام "بومدين"، وهو ما تفهمه الرئيس السابق "عبد العزيز بوتفليقة" بعد عودته للحكم إذ أمر بإلغاء هذا التاريخ من قائمة الأعياد الوطنية والإجازات الرسمية وإعادة الاعتبار لـ"بن بلّة"، وذلك في إطار سياسة تهدف إلى تسامح الجزائر مع ذاتها وتاريخها الحافل ليس بالنضال والانجازات فحسب، بل بالصراعات وتصفية الحسابات السياسية والايديولوجية أيضاً.

من هنا نجد أنّ الرواية الجزائرية لا تجامل التاريخ وتنافقه بل انتقلت بحدة إلى جوهر الصراع الحاصل في مرحلة الجزائر الفتية، وقد عبّر عن هذا الصراع الشخصية الرئيسية في الرواية وهي شخصية "يونس مارينا" وهو "كاتب روائي مثقّف"، قال من خلالها الكاتب كلّ ما يريد قوله لأنّ "الرواية هي في النهاية عالم لغويّ ينشئه الكاتب ليقول فكرة ما أو التعبير عن أزمة ما في الجسد الذاتي والمجتمعي"[18] عبر عالم التّخييل اللامحدود الّذي تتحقق فيه المتعة الجمالية وتؤثر في وعيّ المتلقي.

ولأنّ شخصية المثقّف هي الشخصية الواعية في المجتمع، فهي تعتبر الأنسب لمثل هذا الدور، لتسليط الضوء على معاناة وآلام "الرئيس بن بلّة"، وبشاعة الظلم المسلّط عليه من قبل الرئيس الأسبق "هواري بومدين"، في محاولة من الكاتب لرد الاعتبار لهذه الشخصية التاريخيّة، وتقديمها للقارئ وللأجيال القادمة على صورتها الحقيقيّة، حيث يعتبرها واسيني "قامة إنسانية رفيعة داعياً السلطة القائمة إلى أن تردّ له الاعتبار سياسياً وتحفظ ذاكرته للأجيال القادمة إنسانياً"[19]،

باعتباره واحداً من أهمّ الرموز الوطنية وأيقوناتها التاريخية ممن لعبوا دوراً كبيراً في الثورة التحريرية، وارساء قواعد الدولة الجزائرية الحديثة بعد الاستقلال، لذلك يعدّ "بن بلة" تاريخاً وطنياً بحد ذاته.

وبغية تأثير البطل في وعيّ النّاس في تلك المرحلة من جهة وتأثير الكاتب في وعيّ المتلقي أو القارئ من جهة ثانيّة، نجد "مارينا" الكاتب المثقّف يوظّف الخيّال في كتاباته عن "الرئيس بابانا" ويمعن في وصف تعذيبه ومعاناته في السجن إدراكاً منه بالظلم المسلّط عليه ومحاولة منه لإعادة تشكيل وعي مجتمعي جديد حول هذه الشخصية التاريخية. التي سلطت عليها أكبر أنواع الظلم والعزلة والتهميش.

"نتلقّى الأوامر من جهة عالية، ربّما كانت أقوى من العقيد نفسه، طُلب منّا أن نعرّي لالة الزهراء كما تسمّيها، قبل دخولها إليك، فعلنا وزدنا من عندنا قليلاً، ليعرف الجميع صرامة العقيد. عند الباب، قبل إدخالها عليك، عرّيناها، وفلّينا شعرها. قاومت، ولكنّها لم تستطع أن تفعل أيّ شيء معنا. رأينا جسدها المتآكلّ بفعل الزمن. تأمّلناها، تضاحك بعضنا. لا تستغرب، حواسّنا الّتي نملك ماتت منذ زمن بعيد، وحلّت محلّها حواسّ أخرى شبيهة بحواسّ بعض الحيوانات التي لا سلطان لها على غرائزها، أغلبها من فولاذ، لا يحرّكها أيّ شيء. تبادلنا الدوران حولها، تشمّمناها كما تفعل الحيوانات قبل الانقضاض على فريسة في متناولها، ولالة الزهراء، تصغر وتضمر، حتّى شعرنا بها تنتفي وتتحوّل إلى شيء وتنسى أنّها كانت أمّ رئيس البلاد نهائيّاً. أغمضتْ عينيها على بكاء مرّ. شعرتْ بنفسها أنّها أصبحت فجأة لا تساوي بصقة في الطريق، لاشيء، وهذا ما كنّا نودّه. تهديم الخصم. بدأنا بتحسيسه بأنّه، أوّلاً، وحيد ولا شيء يحميه من العزلة والموت الأكيد. بعدها فقدتْ وعيها. لم تكن تهمّنا لالة الزهراء في شيء إلّابقدر ما هي أمّك. ثمّ أدخلناها عليك وهي لا تستطيع أن ترى وجهك وتنظر إلى عينيك من شدّة الخجل، كمن ارتكب جرم زنا المحارم، أنت لم تكن تعرف شيئًا، ولكنّها كانت تبدو عارية أمامك، لا يستر جسدها إلاّ خوفها عليك. نحن لم نفعل شيئًا سيئًا سوى أنّنا قمنا بواجب ظلّ يؤرّقنا تطبيقه بالشكل الذي يرضي العقيد"[20].

يشتغل النّص السردي -في المقتبس السابق– على التعذيب الجسدي والنفسي للرئيس "بن بلة" حيث "تتكاثف في النّص المفردات الدالة على القمع والعنف والتنكيل والتدمير التي تتحوّل إلى بيانات سرّدية صغيرة تنفتح على تاريخ كامل من الاضطهاد والتغييب على مستوييه الجسدي والنّفسي"[21]، ضدّ أول رئيس جمهورية للبلاد، وهي تعتبر خطّة خطّها المؤلف، ورسمها بدقة فنية كبيرة من أجل التأثير في وعيّ المتلقي للتعاطف مع هذه الشخصيّة، وقد كان الخيّال والحقيقة الركزيتين الأساسيّتين لها، بغية صياغة نص له قوة أكبر تأثر في وعيّ القارئ. وهذه الخطة التي تسرد لنا أحداث ووقائع تاريخية كتبت عن وعيّ إذ "يؤكد واسيني أنّ "بن بلّة" قد ذكرها له شخصياً، ولعل تقديمها الأدبيّ بهذه الصورة كان فظيعاً ومؤثراً أكثر من كلّ الروايات السابقة، خاصة عندما يقول: "كمن ارتكب جرم زنا المحارم.." لذا يمكن اعتبار التوظيف الروائيّ للواقعة مثيراً وموجعاً"[22]، فقد جعل "واسيني" من سجن "بن بلّة" وحكاياته مع الذبابة والحالة النفسية التي دخل فيها دراما سردية بامتياز، تكشف عن إدراك الرئيس "بن بلّة" معنى المهانة والإذلال في سجن الوطن الذي ضحى من أجله، ويظهر ذلك خاصة فيما يخص تكثيف الأجواء والدلالات اللفظيّة، وذلك كلّه من أجل إعادة تشكيل وعيّ جديد بالتاريخ وبهذه الشخصية التاريخيّة.

ومن أجل إعادة تشكيل هذا الوعيّ فإن الروائيّ وعبر بطل الرواية لا يسرّد لنا عن "الرئيس بابانا" بل يترك له مجال التكلم عن نفسه حتّى يخرج مكنونات هذه الشخصية التاريخية وهو يسأل زبانيته من ذئاب العقيد كما يسمح لزبانيته بالتعبير عن رأيهم.

"لماذا تفعلون هذا مع رئيس لم يجرم في حقّ أحد؟ أعطى زهرة شبابه لتحرير أرضه وترابه؟

ساد الصمت لحظات قبل أن يردّ عليه الرجل البدين، لأنّ الخمسة الذين كانوا معه كانوا كلّهم ضعاف السحنة. كان يحمل على كتفيه رموزاً عسكرية تشير إلى رتبته العاليّة. كان يتصبّب عرقاً:

-مأمورون يا سيّدي

- ضدّ أوّل رئيس جمهورية فتيّة؟

-أنت الآن لا شيء يا سيّدي الرايس بابانا، أقلّ من حشرة.

تذكّر الذبابة وكاد يقول إنّ الحشرة أنبل منكم[23]**."**

لكن هذا الحوار لم يجري على لسان شخصية "الرئيس بابانا"، إنّما هو من خيال الكاتب "يونس مارينا" الكاتب والروائيّ، الّذي يعتبر وسيط بين الرئيس "بن بلة" والقارئ وهذا ما يؤكد جانباً "من المعرفة الذاتية الّتي تتخطى حدود السرّد، أي أن الذات لا تعرف ذاتها مباشرة، بل بطريقة غير مباشرة فقط من خلال انعطاف العلامات الثقافية بجميع أنواعها، التي يتم انتاجها استناداً إلى وساطات رمزية تنتج دائماً وأساساً الفعل، ومن ضمن هذه المرويات الحياة اليومية. وتؤكد الوساطة السردية هذه الخاصية الجديرة بالانتباه في المعرفة الذاتية، ألا وهي تأويل الذات وامتلاك القارئ لهوية إحدى الشخصيات الخيالية هي صورة من صورها"[24]. ويكون الكاتب هنا عالماً أكثر من الشخصية الحكائيّة، فهو متحكم في مصائر الشخصيات، متوغل في أفكارها الخفية لأنّ "مارينا" هنا مثقّف وعلى وعيّ سياسي كبير لما يحدث للرئيس "بن بلّة"، "ويبدوا هذا الوعيّ غير شخصي في الظاهر، لأنّ الراوي يرسل القصة من وجهة نظر عليا، وهذا يعني، أنّه في داخل شخصياته -لأنّه يعلم كلّ ما يجري في داخلهم-، وخارجها في الوقت نفسه -لأنّه لا يتطابق أبداً مع شخصية أكثر من الأخرى-"[25]، والوعيّ العميق الذي يمتلكه بطل الرواية مكنّه من رؤية الواقع على حقيقته دون تزوير لهذا الواقع وهذا التاريخ، لهذا فهو يعبر عن مكنونات هذه الشخصية وشعورها لأنّه يعرف احساسها ومعاناتها إزاء ما حدث لها من ظلم تغاضى التاريخ عن ذكره.

ولأنّ الأمور وصلت إلى مفترق طرق بين جيل الاستقلال الباحث عن حرية أخرى ينشدها، وعن حقه في تاريخ حقيقيّ لا مجال فيه للتزوير وقلب الحقائق، وجيل الثورة المثقل بالأسرار والصرّاعات بين رفقاء الكفاح من أجل السيطرة على السلطة والحكم. فإن المصالحة بين هذين الجيلين جيل الاستقلال وجيل الثورة يجب حسب "واسيني" أن تقوم على أساس المصارحة وقول الحقيقة، فالذّاكرة المتعبة المثقلة بالظلم والاستبداد والأسئلة القلقة تبقى دائماً مصدر وجع وداء للشخصية الواعية المثقّفة، تروم هذه الشخصية بالاصطدام معها بحثاً عن اجابات، أو محاولة المسامحة والنسيان.

"كلّ ما لا يشكلّ شيئاً مهمًّا في ذاكرتي أهملته لكي أهوّيها من ثقل السنين. ذاكرتي متعبة ومرهقة. معه حقّ صديقي لحمر عندما حرّر ذاكرته من كلّ شيء ثقيل (...) كلّ شيء في داخلي يغلب عليه السواد والعطب المزمن"[26].

فـ"بلحمر" صديق "مارينا"، قرر المسامحة والنسيان بعد موت العقيد وذلك من أجل الرحيل بسلام والانتهاء من ثقل الذّاكرة الّتي أثقلت كاهله ولم يعد يستطيع حملها معه إلى قبره.

"أقسمت أن لا أغادر البلاد إلاّ إذا مات، غريمي، العقيد. وها هو قد انتهى. لم آت إلاّ عندما دُفن، الله يرحمه، ويغفر له أيضاً، اتّضح يومها أنّ الشّعب كان يحبّه، ولم يعد لرأيي أية جدوى. قبلت بالحكم، إذ يبدو أنّه هو أيضًا تغيّر قبل موته بقليل. مشكلة الوطنيّين، يمكنهم أن ينتقلوا بسرعة من المناضل إلى الطاغية الصغير.

-سامحته بعد كلّ هذا؟

-سامحته. لم يكن أمامي سوى ذلك، أو أحمل حقدي معي إلى قبري. أنا أريد أن أرتاح يا صديقي من شطط الدنيا. تعبت. حقيقة تعبت.

-كأنّي لا أعرفك؟

-كلّنا تغيّرنا يا عزيزي. ثمّ هل يوصل الحقد إلى راحة البال؟ لا.

-قلبك طيّب. أنا لم أستطع. لقد سرق منّي وطني وماما جوهرة، وعمّي مريزق ووو... وحياتي وحياتك. تعذيبه لك وحده يجعلني غير قادر على الصفح عنه.

-لو كنت بأرض الوطن كنتَ عذرته. الرايس بابانا نفسه في تصريح لمجلّة لبنانية مباشرة بعد خروجه من السجن، وجد له كلّ أعذار الدنيا، الناس تغيّروا بعدك يا حميد. الدنيا وقسوة الحيّاة، غيّرت العقيد أيضاً، حماقاته لا تحصى، لكن انتسابه للفقراء ووطنيّته كانا صحيحين."[27]

فبالرغم من مسامحة صديقه "بلحمر" وحتّى "الرئيس بابانا" للعقيد، إلاّ أنّ المثقّف والكاتب "مارينا" يأبى النسيان، رغم محاولته ذلك، لأنّه يريد إجابات على أسئلة حطّمت ماضيه وظلت تؤرّق حاضره، وليس له سوى استحضار ذلك التاريخ، بغية إدانته ورمي كلّ تبعات الحاضر عليه.

"هل تتذكّر؟ أنت تريد أن تتخلّص من ذاكرتك وريّما دفنتها حيّة، أنا أريد أن اتخلّص من ذاكرتي ولكنّ بي رغبة محمومة لأسألها لماذا كلّ هذا الضياع وهذه الفداحة ?Pourquoi ce gâchis? au profit de qui وأضع عيني في عيون قتلة

أمّي وعمّي أحمد الشايب، وعمّي مريزق وغيرهم، وروحي، وأسألهم سؤالاً واحداً، وربّما بدوت لهم سخيفاً في سؤالي: لماذا كلّ هذا؟ ماذا استفدتم؟ أريد إجابة. لا أكتفي بالأقدار ولا مشكلات ما بعد الاستقلال. اللاعقوبة هي الّتي تشجّع القتلة على التورّط في القتل"[28].

فالذّاكرة الشخصية المتعلّقة بالبطل والّتي تحيل في مجملها إلى الذّاكرة الجماعيّة، وما أعقبها من أحداث وطنية بعد الاستقلال، تظلّ دائمة الحضور، رغم محاولات تجاوزها، بنسيانها والعيش بتحرر من ثقل إرثها الدرامي.

"وكأنّ التاريخ يركض، ثمّ فجأةً يتوقّف في لحظة من اللحظات ليتأمّل نفسه بصرامة وقسوة"[29].

حيث نجد بطل الرواية رغم محاولته تجاوز هذا الماضي المثقل بالخوف والألم إلاّ أنّ هذا الأخير يباغته بحضوره غير المتوقع عند لقائه "الرئيس بابانا" في رحلته إلى برشلونة.

"إنّها الرحلة الّتي وضعتني فجأةً وجهاً لوجه أمام ذاكرتي التي ظننتُها انطفأتْ، أو اختفت بسبب الذاكرات الجديدة الّتي تراكمتْ عليها"[30].

فهذا الماضي الموشوم في الذّاكرة يأبى الرحيل، يبقى محفوراً فيها متمسكاً بها عبر الزمن ولا مجال للشفاء منه إلاّ بمسائلته.

ولأنّ تاريخ الأمم هو الصانع لهويتها الحاضرة الماثلة، وأن وعى الأمم وثقافتها ودرجة تمدّنها وتحضّرها، وليد لوعيّها وتفعّلها بالعبر المستخلصة من تاريخها. فإن التاريخ الوطني هو تاريخ يجب مسائلته والبحث في شقوقه عن أبطاله ومهمشيه على حدّ السواء، أمثال "الرئيس بن بلّة" وغيره ممن تجاوزهم التاريخ وهضم حقهم.

ولأنّ الحاضر هو نتاج ما مضى وجب الرجوع إلى هذا التاريخ الّذي بقي يؤرق البطل ويجعله مظهر من مظاهر أزمته في الروايّة، لأنّ البطل هنا مثقّف واعي بهذا التاريخ الغير سويّ ويعرف مدى تأثيره على البلاد وعلى الأجيال اللاحقة، فسؤال الذّاكرة وإعادة كتابة التاريخ، هو مطلب نخبوي في الجزائر، مرتبط بتصفية حساب مع تاريخ مبهم لم يكتب بشكلّ يمكّن للذات المثقّفة أن تقتنع به وترضى عنه، لأنّها ترى التناقض الصارخ بين تاريخ رسمي "يوظّف بشكل انتقائي وتزويري في الكثير من الأحيان بصفته سنداً شرعيا لهذا النظام"[31]،وتاريخ حقيقي مثقل بالأسرار والخوف. لذا فـ"مارينا" يعاتب "الرئيس بابانا" على السكوت واخفاء الحقيقة على النّاس.

"ثورتنا مثقلة بالأسرار والخوف، ولا اعتقد أنّ واحداً من جيلي يستطيع أن يفعل شيئاً. إنّ ما حدث سيظلّ كتاباً مغلقاً. كان أكبر إنجازاته تحرير البلاد من الاستعمار. بعدها لم يكن الفشل الذريع في بناء الدولة، بل في نسيان أحقادنا. لم نعمل على إنساننا بالشكل الذي كان يجب أن يكون عليه.

-نحتاج سيّدي الرئيس إلى من يقول إنّنا قتلنا عبّان رمضان لأنّنا لم نتحمّل صرامته وثقافته. قتلنا شعباني لأنّ شبابه كان يضايقنا. قتلنا كريم بلقاسم لأنّه بدأ يقتل شرعيّتنا. قتلنا حيدر لأنّه أصبح معوّقاً. قتلنا الكثيرين ليس لأنّهم كانو خونة ولكن لأنّهم لم يكونوا يشبهون أيّ واحد فينا"[32].

فسؤال الذّاكرة أو التاريخ، أو العلاقة غير السوية مع الماضي، تتجلى كمظهر من مظاهر أزمة البطل الّذي عجز عن فهم التاريخ واستيعابه، بسبب عدم تحرّر قيادات الثورة ورجالاتها من الكتمان والسرية وتبيان الحقيقة للأجيال اللاحقة ونزع كلّ زيف لطّخ هذا التاريخ.

و الكاتب حين أدرك زيف هذا التاريخ توجه لانتقاده بشكلّ مباشر وتحميله تبعات كلّ الّذي يحدث، من قتل وارهاب لأنّ "العلاقة بين الاستبداد السّياسيّ والإرهاب هي علاقة طرديّة، فكلّما اشتد الاستبداد السّياسيّ زادت فرص اشتداد الإرهاب ونموه"[33]. وذلك بسبب التعدي على سلطة الشّعب، وعدم احترام ارادته وقمعه بشتى الوسائل. ويؤكد الكاتب ذلك من خلال البطل "مارينا" عند التقائه بـ"الرئيس بابانا" ومحاورته:

"كدت أقول له: يا سيّدي الرئيس، العربيّ، بعد أن فقد كلّ شيء، لم يبق له إلاّ جسده، قنبلته وسلاحه الأخير. سيمزّق نفسَه مقابلَ استرجاع كرامته، أو يحرق نفسَه احتجاجاً، أو يأتي الأماكن الأكثر أمناً بالذات ويفجّر نفسه بعبثية ربّما، وعدمية ربّما، ولكنّه في كلّ الأحوال سينتقم من صمته لصمته. لن يخسر شيئاً لأنّه أصبح ممتلئاً برماد السنين"[34].

فالعنف الّذي يتسم به الإنسان العربي أو الجزائريّ، وارتمائه في حضن الارهاب والتطرّف ما هو إلاّ نتيجة للانسداد السّياسيّ الّذي يعرّفه المجتمع العربي، وذلك بسبب تعنّت الحكام العرب وانفرادهم بالسلطة. كما حاول الكاتب تسليط الضوء على واقع هذه المجتمعات وما آلت إليه من تطرف وتقتيل في العالم العربي، بسبب هذه الانقلاب –حسب

الكاتب- وقد وظف شخصية العقيد "هواري بومدين" كشخصية طاغية تمثل نموذج للحاكم العربي المستبد، وهي نظرة مغايرة تماماً لما يسوقه التاريخ الرسمي عن هذه الشخصية الّتي لقيت تأييداً وحباً كبيراً من الشّعب فـ"بلحمر" صديق "مارينا" في الكفاح ضدّ العقيد وسياساته سامح العقيد وقد أقر بحب الشّعب له.

"اتّضح يوماً أنّ الشّعب كان يحبّه ولم يعد لرأيّ أية جدوى. قبلت بالحكم، إذ يبدو أنّه هو أيضاً تغيّر قبل موته بقليل"[35].

غير أنّ مارينا الكاتب والمثقّف لا يعترف بأفضال هذه الشخصية ولا يساير المجتمع في مودّته وحبّه واعتزازه بهذه الشخصية القوية الّتي عرفت برجولتها وشهامتها ومروءتها، فهو المالك للوعيّ، ويعتبر أنه **"ليس من الضروريّ أن يصدّقك النّاسُ ما دمتَ في عمق الحقيقة الأخرى الّتي لا يرؤنها أو يجانبونها ولا ينتبهون إليها"**[36]. وهذا أمر الطبيعي، فمعرفة المثقّف ووعيّه بالتاريخ يجعله متحرراً من أوهام الكمالية والمثاليّة، متقدماً على سواه من النّاس لينير لهم الطريق، فهو يرى الوجه الآخر لشخصية العقيد شخصية العسكري المنقلب على الشرعية .

"لم يجد يونس مارينا أيّ مبرر مقنع ليغفر للعقيد انقلابه العسكريّ ضدّ الرايس بابانا كان عليه أن ينتظر سنوات عديدة، وأفول جزء كبير من العمر ليبحث له عن مبرّرات فقط...كان عمر البلاد المستقلّة حديثاً ثلاث سنوات. صيف سنة 1965 بدأ مبكراً وحاراً. تذكر أنّه قرأ في كتاب ما، قبل أن يكتب مقالته الّتي شرّدته عبر مدن الدنيا، أنّ البلاد الّتي تفتح عهدها بانقلاب، تفتح أيضاً شهية القتلة والمغامرين والساسة المأجورين. تبني في أحسن الأحوال، وعلى أمَدٍ مرئي، عشاً للجوع والقتلة. لا تنشئ أبداً أية مساحة للفرح"[37].

والسّارد هنا لم يتوان بوضع أصبع الاتّهام صوب العقيد "هواري بومدين" دون تلميح، محمّلاً إيّاه وزر ما حدث، مشيراً إلى جدلية الصّراع السلطوي السياسي في الجزائر، وقد أشار السّارد لذلك الصّراع، والتّكالب على كرسيّ الحكم وطغيان المصلحة الخاصة الذي أوقع الجزائر في وحل من الغدر والخيانة والخداع والضّغينة، أسفرت على فتح باب الموت على مصراعيه، ووضع الدولة الجزائرية الفتية على سكة غير سليمة لازال المجتمع الجزائري يعاني من آثارها الوخيمة إلى حدّ الساعة، وبذلك فهو يحمّله النكسات والأوضاع التي آلت إليها الجزائر اليوم بعد أكثر من خمسين سنة من الاستقلال، لأنهم استولوا على السلطة ولم يحترموا الشرعية، وأسسوا بذلك لقاعدة الاستيلاء على الحكم بالقوة، والبقاء فيه بنفس الأسلوب.

والكاتب عندما تطرّق إلى الأحداث التاريخية الوطنية الحسّاسة، استعمل الحدث التاريخيّ كما حصل، وأكمل الخانات الفارغة منه بالخيّال الذي يغني هذا الواقع ويعطيه وجهاً روائياً، لكنّه يسمح بمتابعة السيرورة التاريخية من الداخل، إذ "يحاول أن يجمع ما بين الواقع والتّخييل، ما بين الحادثة التاريخية وبين الفعل السردي المتخيّل، لهذا يحشد بعض الوقائع التاريخية (الواقعيّة) ليعطي للنص بعدا وزخما بمصداقية ما جرى، وبعد ذلك يؤجل سرّد الحوادث التاريخيّة، ليفعّل من عملية التّخييل السردي الّتي تروي للشخصيات الهامشية تاريخيّاً والفاعلة إنسانياً وسرّدياً، والّتي تحاول الانفلات من تاريخ السلطة عبر المراوغة بعيداً عن التاريخ الرسمي الّذي يؤرخ للحوادث"[38]، وتحتلّ التلاعبات التاريخية بنوع من التمعّن والتفحّص. لأنّ الكاتب هنا هو فنان أراد أن يلقي نظرة واعيّة، بوسيلته الفنيّة، على حقبة زمانية من عمر المجتمع الجزائريّ، ليكشف عن حركيته، ويعري جذوره ليقدمه للقارئ خصوصاً الأجيال التي لم تعش في مثل تلك الظروف الّتي عاشها الشعب الجزائريّ بكلّ ضراوتها وصراعاتها وتناقضاتها وانكساراتها، محاولة بذلك أن تكون هذه الرواية هي رصد لحركات التناقض فيما بعد الثورة بحثا عن الجذور وبالتالي عن ملامح المستقبل.

خاتمة:

تعتبر الرواية الجزائرية من الروايات العربية التي عرفت نقلة نوعية سواء من حيث كيفية توظيف التقنيات الحديثة أو عبر خوضها لكل المضامين الثقافية والاجتماعية والسياسية والتاريخية...، بل وأصبحت تعالج كل طابوهات المجتمع بدون حواجز أو عقد وانتقلت من تمجيد الثورة إلى نقدها، لتكوّن بذلك كتابة تاريخية سياسية جديدة مضادة للتاريخ الرسمي الذي كان يقدم للشعوب على أساس أنه الحقيقة المطلقة. ومن بين القضايا التاريخية السياسية الشائكة التي تطرقت إليها الرواية الجزائرية هي قضية انقلاب العقيد "هواري بومدين" على الرئيس "أحمد بن بلة" باعتبارها أحد محطات فيصلية في بناء الدولة الجزائرية الحديثة. لذا كان لابد بمكان أن يكون موضوعاً للكتابة الروائية الجزائرية خصوصا الروائيين المثقفين المهتمين بالجانب السياسي للبلد ومنهم "الطاهر وطار" الذي أكنّ الاحترام والتقدير للعقيد "هواري

بومدين" بالرغم من الاختلاف في طريقة توليه الحكم، أما "واسيني الأعرج" فبحكم ايديولوجيته المناصرة للديمقراطية وحرية الرأي والتعبير فقد كان مناصراً للرئيس المعزول "بن بلة"، متهجماً على العقيد "هواري بومدين" والذي حمله مسؤولية كل ما يحدث للجزائر الآن. وباعتبار أنّ الجزائر مازالت تمارس تجاهلاً مجحفاً بحق بعض مراحلها التاريخيّة، فقد جعلت من الروائيين يكتبون عن الأحداث التاريخية السياسية وفق قناعاتهم الايديولوجية ووفق رؤيتهم للعالم وللكون، فبالرغم من التطرق لما هو مسكوت عنه فإن هذا النطق لم ولن يكن بريئاً أبدا، ليبقى الإنسان يبحث عن الحقيقة التائهة في دهاليز التاريخ دونما إجابات حقيقية.

إن الرواية اليوم هي النص النثري الذي يثير الأسئلة القلقة في ذهن القارئ والمتلقي، عبر المزج بين الحقيقة والخيال، بين التاريخ والتخييل. متجاوزة الشعبي والرسمي، والمقدس والمدنس، فهي لا تعرف حدوداً ولا مسافات، ولا تعترف بالطابوهات، بل بالعكس فهي تنقلب على الفكر السائد والمتعارف عليه في المجتمع. وهنا تكمن أهمية الرواية، كونها تعالج قضية شائكة لم يسبق أن عالجتها ريشة أو قلم فنان من قبل، فهي تسعى إلى تسليط الضوء على المسكوت عنه، وإماطة اللثام عن الممارسات الصدامية غير البريئة والصراعات الإيديولوجية.

إنّ أحد خاصيات الرواية المشتغلة على التاريخ، تقديم فترة تاريخية في أزمة، وتشريح عيوب هذه الفترة وعرض أحداثها، وصراعاتها الحادّة. لذا نجد الكاتبين هنا وقّفا الأحداث التاريخية لجزائر ما بعد الاستقلال والمتمثّلة في الصراعات بين الأخوة الثوار على السلطة، والتي بلغت ذروتها في الانقلاب على الشرعية يوم 19 جوان 1965، وذلك من أجل تسليط الضوء على المسكوت عنه في التاريخ الرسمي، وإظهار مدى تأثير هذه الأحداث الماضية على الحاضر المتشظّي والغائم الذي أصبح يطبع اليوم واقع المجتمع الجزائري.

الهوامش:

1- آمنة أمقران، **كتابة الثورة...ثورة الكتابة في الرواية الجزائرية**، الملتقى الدولي حول الجزائر وثورتها التحريرية، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، 21و22 نوفمبر 2012، http://manifest.univ-ouargla.dz/index.php/seminaires/archive/faculté-des-lettres-et-des-langues/38.html

2- جعفر يايوش، **الأدب الجزائري الجديد** (التجربة والمآل)، المركز الوطني للبحث في الانثرويولوجية الاجتماعية والثقافيةCRASC، مطبعةAGP، وهران، ص73 .

3- سعيد يقطين، **الرواية والتراث السّردي** (من أجل وعي جديد بالتراث)، رؤية النشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006م، ص10.

4- أحمد محمّد عطية، **البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة**، وزارة الثقافة، دمشق، 1977،ص 254.

5- واسيني الأعرج، **اتجاهات الرواية العربية في الجزائر** (بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986 ص90.

6- ينظر علال سنقوقة **المتخيل والسلطة** في علاقة الرواية الجزائرية بالسلطة السياسيّة، منشورات الاختلاف، ط1، 2000، ص48.

7 الطاهر وطار، رواية العشق والموت في الزمن الحراشي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية –موفم -للنشر، الجزائر، 2013م، العشق والموت في زمن الحراشي ص112

8 رواية العشق والموت في زمن الحراشي ص175

9 رواية العشق والموت في زمن الحراشي ص176

10 زهرة ديك، الطاهر وطار هكذا تكلم.. هكذا كتب، منشورات دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، 20013، ص47 حاوره: الخير شوار/أصوات الشمال 2010/08/17.

11 علي ملاحي، هكذا تكلم الطاهر وطار- مقامات نقدية وحوارات مختارة، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، المقام النقدي الرابع، 2011م، ص82، مقال مجّدت الاشتراكية، وكتبت عن الظاهرة الاسلامية كتقدمي، حاورته نورالهدى غولي.

12 رواية العشق والموت في زمن الحراشي ص176

13 رواية العشق والموت في زمن الحراشي، ص174-175

14- واسيني الأعرج، أصابع لوليتا، رواية، دار الآداب للنشر والتوزيع ببيروت-لبنان، الطبعة1، 2012م، ص334

15- رواية أصابع لوليتا، ص70

16- حسن بن حسن، **الوعيّ التّاريخيّ كقوة للتجاوز؟؟**، مركز التنوع للدراسات، http://www.tanaowa.com/wp-content/uploads/2013/03/. الوعيّ-التّاريخيّ.pdf

17- رواية أصابع لوليتا، ص344

18- واسيني الأعرج، محاكم التفتيش المقدس تستيقظ في الجزائر على هامش تكفير الروائيّ الجزائريّ كمال داوود، مجلة القدس العربي، 19 ديسمبر 2014، http://www.alquds.co.uk/?p=267637

19- ينظر واسيني الأعرج، **لم أعمد لرد الاعتبار لبن بلة**، والسلطة هي من عليها فعل ذلك، جريدة المقام، http://www.elmakam.com/?p=20703

20- رواية أصابع لوليتا، ص79-80

21- فيصل غازي مُحَمَّد النعيمي، **من الحدث التّاريخيّ إلى تأسيس القدسي** قراءة في رواية (في انتظار فرج الله القهار) لسعدي المالح..، مجلة التربيّة والعلم - المجلد (20)، العدد 4، 2013،ص

22- هاجر قويدري، **أحمد بن بلة في رواية واسيني الأعرج الأخيرة** "أصابع لوليتا"، الرايس بابانا.. وذئاب العقيد، جريدة الفجر، الخميس 15 جانفي 2015، http://www.al-fadjr.com/ar/index.php?news=211709%3Fprint

23- رواية أصابع لوليتا، ص78

24- ديفيد وورد، **الوجود والزمان والسرّد، فلسفة بول ريكور**، ترجمة وتقديم ،سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربيّ، الدار البيضاء، ط1، 1999م، ص264-265.

25- رولان بارت، **مدخل إلى التحليل البنيوي للقص**، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري للدراسات والترجمة والنشر، بيروت، ط1، 1993، ص72.

26- رواية أصابع لوليتا، ص164-165

27- رواية أصابع لوليتا، ص95-96

28- رواية أصابع لوليتا، ص97

29- رواية أصابع لوليتا، ص329

30- رواية أصابع لوليتا، ص325

31- رابح لونيسي، **الصراعات الداخلية للثورة الجزائرية في الخطاب التاريخي الجزائري**، مجلة انسانيات، المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، عدد مزدوج 25- 26، جويلية، ديسمبر 2004، http://insaniyat.revues.org/6492

32رواية أصابع لوليتا، ص 344-345.

33- يحيى الضبيبي ،**الإرهاب ثمرة الاستبداد السياسي والاين غير الشرعي للأنظمة !**، جريدة الجمهورية، http://www.algomhoriah.net/newsweekarticle.php?sid=158085

34- الرواية ص347

35- الرواية ص95

36- الرواية ص326

37- الرواية ص67-ص68

38- فيصل غازي مُحَمَّد النعيمي، **من الحدث التّاريخيّ إلى تأسيس القدسي** قراءة في رواية (في انتظار فرج الله القهار) لسعدي المالح..، مجلة التربيّة والعلم - المجلد (20)، العدد 4، 2013،ص 242.